العرب والترك(*)

١

(واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا)

التغاير بين الاخوة الاشقاء ، والتنافس بين الجيران والخلطاء ، هما من الاخلاق المعهودة بين الناس ، في جميع الشعوب والاجناس ، وكثيرا ما يفضي التغاير الى التنافر ، والتنافس الى التحاسد ، فاذا اقترن ذلك بالتقاطع والتدابر ، ولم يفض كل من المتنافسين بما في نفسه الى الآخر ، اشتعلت بينهما نار العداوة والبغضاء ، وان كان الخير لكل منهما في الموادّة والوفاء ، وان ما يقع من الشقاق بين البشر بسوء الفهم ، اكثر مما يقع بسوء النية والقصد

تلك قوانين الاخلاق وسنن الاجتماع التي تسير عليها الافراد والاقوام ، فالعرب والترك هما الصنوان في شجرة الملة الحنيفية ، والاخوان الشقيقان في الجامعة العثمانية ، والركنان الركينان لبناء الخلافة الاسلامية ، فالرابطة بينهما جديرة بأن تبقى دائما كما وصفها كمال بك نامق زعيم النهضة الادبية في الترك بقوله : « ان كان يطمع أحد في حلها فهو الشيطان ، وان كان يقدر عليه احد فهو الله »

هذا ما كان ، وهذا مايجب ان يكون الى ماشاء الله ، ولكن وجد شيطانان لاشيطان واحد يطمعان في حل الرابطة المتينة بين العنصرين اللذين امتزجا كامتزاج الاكسجين والادروجين في تكون الماء ، أوالاكسجين والنيتروجين في تكون الهواء ، ذانك الشيطانان هما شيطان السياسة الاوربية ، وشيطان الجهل في كثير من أفراد

(*) مقال طويل كتبناه في الاستانة ونشر نبذا متفرقة مترجما بالتركية في جريدة « اقدام » الشهيرة وبالعربية في جريدة « كلمة الحق »

المتمصرين، ولكلٍّ واحد من هذين الشيطانين شر من شيطان الجن الذي ذكره كبال بك رحمه الله، وسأبين ذلك تبيينا

ان هذا العاجز كاتب هذا المقال ربما كان من أعلم الناس بقوادم هذه المسألة وخوافيها وهزلها وجدها لاني جئت مصر منذ اثني عشرة سنة فكنت اشتغل فيها بالدعوة الى الاصلاح الاسلامي جهراً، من حيث اشتغل بالسياسة العثمانية سراً، وان مصر في هذا العصر، هي مرآة الشرق والغرب، بما فيها من الحرية المطلقة، والشعوب المختلفة، والجرائد الحرة، والاجتماعات المباحة، فالمقيم فيها يسهل عليه ان يعرف من احوال البلاد العثمانية وسياسة الدول فيها مالا يعرفه أهل الاستانة ولا غيرهم من المقيمين في الولايات حتى في هذا العصر عصر الدستور، فماذا تقول في عصر الاستبداد القريب: عصر الحجر على المطبوعات والختم على الافواه، والمنع من الاجتماع، والرعب من ذكر بعض الاسماء والالقاب، والعقاب الشديد على فلتات اللسان، وزلات الاقلام !!!؟

اني ماتركت مصر وجئت الاستانة في هذا الوقت لأمتع النفس باستنشاق هوائها وعذوبة مائها ومناظر بوسفورها، وانما جئت باحثا ومختبراً أو ساعيا في الاصلاح، فأنا أعرض ماعندي من المعرفة والاختبار والرأي، على اولي الامر وأهل الحل والعقد، بعضه بالمشافهة والمسارّة، وبعضه بالكتابة في الجرائد، فان صادف آذانا واعية، واعينا بصيرة متأملة، فذلك ماأرجوه، وان صدق ماقيل لي بمصر من ان أولي الامر وكذا أصحاب الصحف في الاستانة لايبالون بقول أحد ولا برأيه — وما أظن ان الامر كما قيل — فحسبي اني أديت الواجب عليّ وعملت بالنصيحة الواجبة لائمة المسلمين وعامتهم كما ثبت في الحديث الشريف الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما

قضيت أكثر من اسبوع في هذه العاصمة لاأقابل أحدا من أولي الامر ولا من أصحاب الجرائد وانما كان همي فيها محصورا في اكتشاف الآراء، واستخراج مخبآت النفوس، ومكنونات الصدور، في الامور العامة، ومسألة سوء التفاهم بين الترك والعرب خاصة، فرأيتني بعد ان وقفت على كثير من المسائل والآراء، وما

فيها من الاغراض والاهواء ، لم أزدد علما بأصل المسألة وانما أضفت الى ماعندي جزئيات جديدة من الحوادث والوقائع تؤيد الامر الكلي ولا تنقض منه شيئا

فالامر الذي يجب التصريح به بالاجمال، قبل بيان الاسباب والنتائج بالتفصيل والذي يجب ان يعلم وان يعمل به، هو أنه يوجد شيء من سوء التفاهم بين العنصرين تخشى عاقبته ان لم يتدارك في الحال ، وأن كبراء الدولة وقادة الافكار في العاصمة ليسوا على بينة منه وأستشهد على ذلك شهيدين قريبين : أحدهما فتنة الشام في هذا العام ، وثانيهما مانشر في جريدة «اقدام» من خبر اتحاد امراء جزيرة العرب لاجل تكوين دولة عربية !

أماالاول الذي استدل به على ان حكومة العاصمة ليست على بينة من احوال الولايات العربية فهوان بعض الوشاة في دمشق الشام بلغوا هذه الحكومة بتقرير من تقاريرهم التي اعتادوها في زمن الحكومة الحميدية بأن أفراداً معينين يكونون دولة عربية وخلافة جديدة !! فبادرت الحكومة الدستورية الى التحقيق واستنطاق المتهمين بهذه الجناية جهراً، وكانت الحكومة الحميدية تفعل ذلك في شأنهم وشأن أمثالهم سراً ، وهم أفضل علماء الشام وأخلص المخلصين من أحرارها للحكومة الدستورية، هم الذين كانوا مضطهدين في الدور الماضي فلما جاء الدستور ظنوا ان زمن اضطهادهم قد مضى وجاء الزمن الذي ينفع فيه الصادقين صدقهم، و يعرف فيه للمخلصين اخلاصهم ، وكانوا هم السابقين، الى مقاومة الرجعيين ، اما ببذل نصائحهم وعلومهم كالشيخ عبد الرزاق البيطار والشيخ جمال الدين القاسمي ، و إما ببذل أموالهم ونفوذهم كعبد الرحمن بك اليوسف ، والسبب في وقوع هذا الغلط عدم الوقوف على حقيقة الاحوال ودليل ذلك ان ناظر الداخلية لم يلبث ان أصدر أمراً حين علم بالحقيقة من مدة قريبة بترك التحقيق عن المتهمين بالباطل وجعل المسألة كأن لم تكن شيئا مذكورا ، ولكن تلك الاهانة التي اصابت اولئك المخلصين بسبب ما ذكرنا من عذر الحكومة قد تنسب الى سوء القصد، أو تضعف الثقة بالحكومة الدستورية — لولم تتداركها — وسنبحث في طريق معرفة الحكومة والجرائد في العاصمة لاحوال الولايات في نبذة أخرى من هذا المقال

وأما الامر الثاني وهو مااستدل به على عدم معرفة الجرائد وقرائها هنا بأحوال

البلاد العربية فهو تصديق مانشرته جريدة « اقدام » مترجما عن جريدة « الاتحاد العثماني » من اتحاد امراء العرب وشيوخهم في الجزيرة واهتمام الناس هنا بذلك: وهذا ماحملني على زيارة هذه الجريدة ومكاشفة مديرها الفاضل بحقيقة الامر في ذلك الخبر والاتفاق معه على كتابة مقال في بيان ماعندي من الصواب في هذه المسألة وفي المسألة الكبرى التي تعد هذه فرعا من فروعها وهي مسألة سوء التفاهم بين العرب والترك وما يجب من طرق تلافيه بعد معرفة أسبابه ، وقد شكرت للرصيف الكريم قبوله مني ما اكتب وترجمته ونشره في جريدته

لمسألة اتفاق امراء الجزيرة أصل عرفته من اوثق المصادر واصحها وهو ان شيخ لحج (ويلقب هناك بسلطان لحج) قد كتب كتابا الى بعض امراء العرب وشيوخهم كامام الزيدية في اليمن والشريف أمير مكة في الحجاز وغيرها وأرسله مع رسل من قبله يحملون بعض الهدايا وهي تتضمن الدعوة الى المذاكرة في الاتفاق على حفظ جزيرة العرب من العبث باستقلالها ولو من قبل الدولة العلية! . ولكن لم يجبه أحد الى دعوته ولا حصل اتفاق بين اولئك الامراء ولا اتفاق على الاتحاد ، ولا ذلك من المتيسر ولا شيخ لحج ممن يسمع له اولئك الامراء قولا ، أو يحترمون له رأيا، أو يعتقدون فيه اخلاصا، بل هم يسيئون الظن فيه لما بينه و بين انكلترا من الولاء ، وما يأخذ منها من العطاء ،

علمت بهذه المسألة من عدة اشهر ولم أنشرها في « المنار » ولا في غيره من الصحف لاعتقادي أنها لاضرر فيها وانما الضرر في نشرها ، وخوض العامة بذكرها؛ لما سأبينه بعد : ولكن لما كان علم الدولة بها واجبا ولا سيما ان كانت بدسيسة اجنبية بادرت الى اخبار بعض من يثق بي من كبراء الدولة بها في كتاب ارسلته اليه من مصر على انه بلغني ان امير مكة المكرمة اخبر حكومة العاصمة بها ايضا

بعد ذلك سمع بعض التجار في عدن وغيرها بالخبر ولكن على غير وجهه فتناقلوه حتى وصل الى طرابلس الشام فتلقفه مكاتب جريدة « المؤيد » المصرية هناك وكبره واضاف اليه ماجرت عادة مكاتبي الجرائد بالتوسع في مثله وأرسله الى المؤيد ، و بعد ان نشره المؤيد بزمن غير طويل نشرته جريدة « الاتحاد العثماني » فوصل الى الاستانة العلية في هذه الايام وكان له من سوء التأثير ما كان . وبحمد الله

ان كانت الحكومة هنا اعرف بحقيقة هذا الامر من الجرائد اذ لولا ذلك لخشي ان تحشر الزحوف ، وتنفق الالوف ، وتسيّر الاسطول ، لدرء هذا الخطر الموهوم ، فان اتفاق اولئك الامراء لايتلافى بمثل مايتلافى به اتفاق الشيخ عبد الرزاق البيطار والشيخ جمال القاسمي وهما شيخان ضعيفان يقيمان في مركز فيلق من فيالق الدولة العلية !!

أكتفي بهذه النبذة اليوم وسأكشف الغطاء في النبذة الثانية عن اسباب سوء التفاهم واجعل هذا وذاك مقدمة لما أدعو اليه من الوحدة والاتفاق

٢

قلت ان العرب والترك يجب أن يكونا متحدين كالعنصرين المكونين الماء اوالهواء بحيث يكون الناظرون اليهما كالناظرين الى الماء يرون شيئا واحدا لاشيئين ، والشاعرون بمقاومتهما كالشاعرين بمقاومة الهواء وهو قوة واحدة لاقوتان منفصلتان ، وقلت ان شيطاني السياسة الاجنبية والجهالة الداخلية ، يطمعان في حل رابطتهما القوية ، وتحليل وحدتهما الدينية الاجتماعية ، بمحال العصبية الجنسية ، وانا نبين ذلك بشيء من التفصيل

سياسة اوربا في الاجناس

وضعت في اوربا قاعدة من قواعد السياسة من عهد نابليون وهي وجوب استقلال كل جنس بنفسه ، فهذه القاعدة يعمل بها رجال السياسة الاستعمارية بحيث توافق مصلحتهم فقط ، ويوجد من رجال الاجتماع من يقول بوجوب اطرادها لمصلحة البشر وان كان استقلال بعض الاجناس ينافي مصلحة جنس آخر سائد عليه او متعزز به

لهذه القاعدة فروع كثيرة تتعلق بالدولة العلية لاخير لها في شيء منها لانها مؤلفة من اجناس كثيرة لا قوة للدولة الا باتحادها كلها او جلها بالاخلاص فان شذ منها جنس صغير هو فيها كالكربون في الهواء لم يكن ذلك ضارا لها ضررا يضعف كيانها فان خلوّ الهواء من الكربون لايبطل كونه هواء وإن كان لا يخلو في الغالب منه . واني لا أبحث هنا في هذه الفروع وإنما اقول انه لا يغبن احد من الاجناس

العثمانية في سياسة الجنسية كما يظن الترك العثمانيون لأن من مقتضاها أن يحصر استقلالهم في بلاد الاناضول التي هم فيها أكثر عددا ولا تسمح لهم اوربا بالاتحاد باهل تركستان ولا هم يقدرون على ذلك بالقوة ، فاتهام بعض العرب وغيرهم لساسة الترك بانهم يريدون استخدام قوة الدولة لتمييز جنسهم على سائر الاجناس العثمانية هو اتهام لهم بالجهل بمصلحة الدولة وبمنفعة جنسهم فوق الجهل بما يحظره عليهم دينهم من عصبية الجنسية

سياسة اوربا الجنسية في البلاد العربية

قلت ان القائلين بهذه السياسة في أوربا فريقان : رجال الاستعمار الذين يستخدمونها لمصلحتهم بقدر مصلحتهم ، ورجال الاجتماع الذين يسمون لها سعيها على الاطلاق علاجا يعتقدون من خير البشر . فالاولون يبثون في البلاد العربية العثمانية فكرة الاستقلال العربي مخادعة للعرب ليساعدوهم على الانفصال من جسم الدولة العلية، وماذا تريد أوربا بعد ذلك ؟ تريد أن تضع هذه البلاد العربية تحت حمايتها أو تضمها الى مستعمراتها وتقطع عليها طريق الاستقلال باسم الاستقلال ! ! وان لاوربا من الدسائس والوساوس في اطماع البلاد العربية العثمانية بالاستقلال مالا تسمح لنا الحالة السياسية في الاستانة الآن بشرحه وانما اشرنا اليه لنذكر اهل الحل والعقد ورجال الصحافة في هذه العاصمة بأن سوء الادارة في عصر الاستبداد كان هو المساعد لترويج تلك الدسائس ، وان حسن الادارة وحده لا يكفي في هذا العصر لقطع عرق الدسائس وخيبة مساعي اصحابها بل يجب أن يقترن بالمساواة وتأييد الوحدة العثمانية بالعمل من الحكومة و باقوال الجرائد وفي مقدمتها جرائد العاصمة فان كلمة واحدة من جريدة تركية او من كاتب تركي تشعر بتفضيل الترك على غيرهم تحبط عمل الف واحد من العرب في الدعوة إلى الاتفاق والاتحاد

قد اشتهر امر المناظرة الطويلة التي دارت بين هذا العاجز و بين صاحب جريدة (وطن) التي تصدر في مدينة لاهور بالهند في الانقلاب العثماني الذي سميته ميمونا وسماه مناظري مشؤما ، وقد كان مما قاله في رده الاخير على اني لم أعترف لعبد الحميد بحسنة واحدة وقد كانت جرائد الشرق والغرب طافحة بتعداد حسناته الكثيرة ،

فأجبته في ردي الأخير عليه الذي نشرته في جزء المنار الذي صدر في آخر رمضان الماضي : اني أعترف لعبدالحميد بحسنتين سكة الحديد الحجازية ، وعدم التعصب للجنسية، اذلم يكن يقال في زمنه ترك وعرب . وأزيد الآن على ما قلته هنالك انه لو كانت تلك الادارة السوءى مقرونة بالتعصب الجنسي للترك لانفصلت البلاد العربية من جسم الدولة ألبتة

هذا : وان في أوربا من أهل السياسة من يساعد على فصل بلاد العرب من جسم الدولة العلية لاجل اضعاف الدولة لا لطمع في شيء من تلك البلاد ، وانني قد دعيت منذ اعوام الى الدخول فيجمعية او رياسة جمعية باوربا تدعو الى استقلال البلاد العربية وقيل لي ان جمعية كذا .... وجمعية كذا .... من الجمعيات التي تريد اضعاف الترك في مقدونية وفي الاناضول وحملهم على تفريق القوة العسكرية، تساعد هذه الجمعية العربية بالمال الكثير اذا دخل فيها بعض المشهورين من المسلمين ، ولما رفضت هذه الدعوة قيل لي اسمح لنا بكتابة شيء في ذلك بقلمك او اسمح لنا أن نستخدم اسمك فلم اقبل بل كان ذلك مما قوى عزيمتي على القيام مع بعض اصدقائي العثمانيين بمصر بجمعية الشورى العثمانية التي ألفناها من جميع العناصر العثمانية المطالبة بالدستور والاصلاح

واما رجال الاجتماع من الاوربيين الذين يميلون الى تكوين دولة عربية فكثيرون ، ومنهم المخلصون الذين لايقصدون مساعدة الطامعين في البلاد العربية ولا اضعاف الشعب التركي ، وقد يستغرب كثير من القارئين لهذا المقال الجزم بوجود هذا الصنف من الناس في أوربا ، ألا فليعلم المستغربون اننا نقول هذا عن علم لاعن ظن وان الانسان ما زال مصدر الغرائب . ومما وقفت عليه من ذلك ان بعض هؤلاء المخلصين في حب العرب قد عرف الاستاذ الامام (الشيخ محمد عبده رحمه الله) ووثق باقتداره فرغب اليه أن يضع له نظاما لاستقلال جزيرة العرب وتكوين دولة عربية فيها ليسعى في تنفيذ ذلك . وقال له انه يوجد مال كثير يبذل في سبيل المشروع وانه هو ينفق من صندوقه مبلغ كذا من الوف الجنيهات . فأقنعه الاستاذ الامام بأن فصل العرب من الترك يضيع الفريقين ويضر الاسلام نفسه ،

فقال له ذلك الاوربي الفاضل اذا كان الامر كذلك فانا أعاهدك على ترك السعي له

إن مايظهره العلماء المستشرقون من آثار العرب في العلم والمدنية والدين ومايطبعونه في كتبهم التي كانت نسجت عليها عناكب النسيان، هو مما يقوي ميل أولئك الاجتماعيين الى مساعدة الاستقلال العربي اذا سمت العرب اليه وطالبت به، فأحب ان يعرف ذلك رجال السياسة والصحافة من الترك وان يعلموا علم اليقين انه لم يوجد الى هذا اليوم سعي الى هذه التفرقة الضارة ولا ميل من أهل البلاد العربية، وان العارفين منهم بهذه المنافذ يسعون في سدها، وان الذين أظهروا الدعوة اليها في أوربا انما هم أفراد من اصحاب المطامع الذين كانوا يبتغون المال والمناصب من عبد الحميد والتهويش على الدستور ورجاله في أول العهد باعلانه، وان عزت العابد لا يقدر الآن على شيء، وان كل مايجب الآن محصور في ازالة سوء التفاهم بين العنصرين وهو ماسنبينه بعد

٣

إذا جنحت الترك للاعتصام والامتزاج بالعرب بما سأذكره من الوسائل فان العرب تكون أجنح لذلك لان الترك هم العنصر الاكبر في الدولة والسياسة، والقاعدة الطبيعية في الجاذبية ان الاكبر يجذب الاصغر، ولانهم أشد استمساكا بالجنسية فيخشى ان يكونوا هم الذين يكوّنون عصبية العرب الجنسية

فان قيل ان العرب هم أكبر العنصرين بكثرة عددهم وسعة أرضهم وموارد ثروتهم فهم الذين يجب ان يجذبوا الترك اليهم، فالجواب ان هذا كان يكون صحيحا لو كان التنازع والتجاذب بين عامة العنصرين وبحمد الله انه لم يكن كذلك لان هذه العصبية اذا سرت في نفوس العامة فتنبهوا لها وتوجهوا الى العمل بموجبها، فإنه يتعسر أو يتعذر نزعها من قلوبهم، واستخراجها من أدمغتهم، وإنما التنازع والتجاذب محصوران في طائفة من المتعلمين وهم رجال المناصب في الدولة وطلابها، والمشتغلون بالسياسة، كأصحاب الجرائد وكتابها، ومجموع الفريقين في الترك أكثر منهم في العرب وهو معنى قولنا ان الترك أكبر العنصرين في الدولة والسياسة، وإن انحصار التجاذب بين اعقل المتعلمين في الفريقين هو الذي يطمع طلاب الوفاق ومحبي الاصلاح في

ازالة سوء التفاهم الذي يغري كل فريق ببث سموم التفريق في عامة الناطقين بلغته

وأما كون الترك اشد استمساكا بعصبية الجنس من العرب فسببه ان دولتهم قامت بهذه العصبية لا بالدين الذي يجمع بين الاجناس الكثيرة و يساوي بينهم كدولة العرب أو دولهم ولا نطيل في بيان هذا لانه لا يقوي ما نرمي اليه من التأليف والتوحيد بل ربما يعارضه ، وحسبهم ان دولتهم سميت باسم جنسهم (تركيا) وكان مما زادهم استمساكا بعصبيتهم الجنسية كثرة الاجناس المزاحمة لهم في عاصمة الملك وما يتصل بها من البلاد .

نعم انهم على قيامهم بعصبية الجنس لم يكرهوا الاجناس التي استولوا على بلادها على التجنس بجنسيتهم ولا على الدخول في دينهم ، أما الاول فلان دولتهم لم تكن دولة علم وحكمة ، وانما كانت دولة بأس وقوة ، وقد مرت عليها القرون ولم تجعل للغة التركية نحوا ولا صرفا ولا معاجم ولا غير ذلك من كتب التعليم . وأما الثاني فلان الإسلام نفسه هو الذي لم يسمح لهم بذلك وقد أراده بعض سلاطينهم واستفتى فيه مفتيه « شيخ الاسلام » فلم يفته فامتنع لانه كان مسلما ودولته اسلامية لاشبهة في ذلك .

ما كنت لألم بهذا الاستطراد لولا ماخشيته من الاعتراض على بعض المقدمات الذي يترتب عليه عدم التسليم بالنتيجة . واذا سلمنا ان الاستمساك بالجنسية فيهم أشد ، وانهم أقوى على جذب غيرهم اليهم وأقدر ، فلا مندوحة لنا عن التسليم بأن الخوف من التفرق والرجاء في الاعتصام هما منهم وفيهم أشد وأقوى أيضا . واني لأرجح الرجاء على الخوف لحسن ظني بكبراء القوم وزعمائهم الذي لا ينقضه وقوع بعض الاغلاط منهم ، التي تولد منها ماتولد من سوء الفهم ، الذي يسهل تداركه مع حسن القصد ، وقد رأيت بوادر الارتياح الى التدارك من فخامة الصدر الاعظم فمن دونه من رجالهم الذين اتفق لي الحديث معهم ، بل رأيت الكثيرين من فضلائهم قد اقبلوا بعد نشر النبذة الاولى من هذا المقال في جريدة (اقدام) للسلام عليّ والتعرف بي والشكر لي والاعتراف بحسن مادعوت اليه من وجوب الاتحاد والاعتصام . وكذلك فعل الكثيرون من وجهاء العرب المقيمين في هذه العاصمة . افليس هذا دليلا على صدق ماجزمنا به من كون المسألة التي نبحث فيها مسألة سوء فهم يسهل تداركها قبل اتساع دائرتها ؟ بلى ، ومتى وضحت الاسباب ، زال الارتياب ،

تاريخ التغاير بين العرب والترك

ان الطبيب لا يحسن معالجة المريض ويكون جديرا بالنجاح فيها الا اذا كان عارفا بتاريخه الصحي وبما طرأ عليه من الامراض من قبل، بل يجب ان يكون مع ذلك على علم بالحال الصحية في آبائه وعشيرته ليعرف استعداد مزاجه وما عسى ان يكون قد سرى اليه بالوراثة، وكذلك يجب ان يعرف الطبيب الاجتماعي تاريخ الامم والشعوب التي يتصدى لارشادها ومعالجة امراضها الاجتماعية، واخلاقها وعاداتها الطارئة والموروثة، وهذا مايدعونا الى الاشارة الى مالابد من التذكير به من تاريخ التغاير بين هذين العنصرين اللذين يجب ان يتحدا دائما كاتحاد عنصري الهواء أو الماء

كان للعرب مدنيات قديمة قد امتدت من بلادهم الى بلاد الكلدان والفرس من جهة الشرق والى مصر من جهة الغرب فتاريخ دولة الرعاة العربية في مصر معروف ويقول بعض المؤرخين انه كان لهم في تلك البلاد دولة اقدم منها، وشريعة حمورابي وهي اقدم الشرائع المعروفة من التاريخ شريعة عربية، فحمورابي العربي كان يدعى ملك السلام كما في العهد العتيق والعهد الجديد من اسفار أهل الكتاب وكان معاصرا لابراهيم الخليل عليه وعلى آله الصلاة والسلام، الا ان تلك المدنيات قد زالت كما زال غيرها من المدنيات القديمة — ولم يظهر شيء من آثارها الا في هذا العصر الذي عني فيه الاوربيون باستخراج الآثار القديمة من بطن الارض، وسيجاريهم العثمانيون في ذلك وهم أحق بمعرفة تاريخ البلاد التي ورثوها ويوجب عليهم الدستور في هذا العصر عمارتها كما أوجب الاستبداد على سلفهم اهمالها ان لم نقل تخريبها

ثم اتى على العرب حين من الدهر لم يكونوا فيه شيئا مذكورا في عالم المدنية حتى انبلج فيهم فجر الاسلام بمكة المكرمة وطلعت شمسه بالمدينة المنورة ثم امتد نوره الى سائر الآفاق، واتسعت فتوحاته في الشرق والغرب، واحيا العلوم التي كانت قد ماتت، وجدد المدنية التي كانت قد عفت وطمست، ولكن كان من تعاليمه محو العصبية الجنسية، ولذلك كانت الدواوين التي دونها الخليفة الثاني للحكومة في بلاد الشام باللغة الرومية الى عهد عبدالملك بن مروان، وكان وزراء اعظم الخلفاء العباسيين

من الفرس ، وحاشية آخرين منهم وحرسهم وجندهم الخاص الممتاز من الترك . ثم حدثت في بلاد الخليفة العباسي سلاطين الطوائف فكان منهم الفارسي والتركي والكردي ، ولم يخطر في بال العرب ان هؤلاء غرباء عنهم ، وانه يجب تأليف عصبية عربية انزع الملك منهم ، ذلك بأن الاسلام نزع عصبية الجنس من قلوبهم بقول الله لهم في سورة الحجرات «يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم» فعلمهم ان الشعوب التي تختلف باختلاف الجنسية والقبائل المتفرقة باختلاف النسب يجب ان تتعارف فتأتلف ، لا ان تتناكر فتختلف ، وبذلك أوصاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حجة الوداع وصرح بأنه لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي الا بالتقوى ، ولذلك كانت العرب ولا تزال تفضل مثل ملكشاه السلجوقي وصلاح الدين الايوبي الكردي على أكثر ملوك بني أمية . ولذا سهل على ملوك آل عثمان الاستيلاء على البلاد العربية ولم يخطر على بال الامة العربية أنه قد استولى عليها قوم ليسوا من جنسها ، اذ ليس لها — ومعظمها على الاسلام — جنسية في غير دينها ، ألم تر الى الشعب المصري العربي كيف يئن من نفوذ الانكليز وهم ليسوا بمالكين ، ويحن الى الترك وان كانوا الى آخر عهد عبد الحميد من الظالمين ، ومن الامور التي لا ينكرها مصري ولا تركي ان الانكليز قد اصلحوا من بعض الوجوه في مصر ، أن الترك لم يصلحوا فيها شيئا ، ولا نزيد على ذلك لئلا نخرج الى ما ليس من غرضنا أو الى ما يوشك ان يضعف صوتنا فيه

يقول بعض المتفرنجين منا ان عدم تعصب العرب لجنسهم كان ضارا بهم لانه أزال ملكهم ، وان الترك لو عملوا بهذه السياسة الاسلامية لكان شأنهم في ذلك كشأنهم ، ونقول ان هذا القول باطل وليس هذا المقام مما يتسع لبيان بطلانه بالحجة والبرهان ، وانما الغرض مما تقدم بيان ان العرب لا يكرهون سلطة الترك تعصبا لجنسهم وانما ينكرون منهم بعض الاخلاق والاعمال كما ينكر بعض أفرادهم وبعض جماعاتهم على بعض . هذا ما عليه مجموع الامة العربية لا جميع افرادها فانني لا أنكر انه قد عرض لكثير من المتعلمين الميل إلى التعصب الجنسي والاستقلال العربي وهو المقصود من بحثنا هذا

ان الدولة التركية لم يكن لها في عصور قوتها نفوذ ولا سلطة ولا دواوين ولا محاكم في داخلية البلاد العربية ولا مدارس تركية فهي لم تمتزج بالعرب ولم تلتحم معهم بلحمة العدل والعلم واللغة فيكون الترك والعرب امة واحدة، ولم تسسهم بالقوة والجبروت والظلم العام فتفسد بأسهم وتجعلهم امة ذليلة، بل كانت الى ما قبل «التنظيمات الخيرية» التي وضعت في عهد السلطان عبد المجيد (رحمه الله تعالى) تكتفي بارسال بعض عمالها الى بعض البلاد الكبيرة لاجل اخذ ما فرض على كل جهة من المال للدولة، ولكن البلاد المصرية قد ذاقت من الظلم في عهد المماليك ماصارت تعد به عصر محمد علي باشا وعصر احفاده عصر نور واصلاح، على ما كان فيه من ظلم وجور، ومع هذا كله لم تتوجه نفوس المصريين الى طلب الاستقلال التام عن الترك الا في عهد الثورة العرابية، ثم لما كانت عاقبة الثورة هي احتلال الاجانب للقطر المصري حدث للمصريين من التعلق بالدولة العلية ما هو معروف وقد أشرنا اليه آنفا

بعد «التنظيمات الخيرية» تغلغل عمال الحكومة من الترك في البلاد العربية فلم يكن الناس يستنكرون سلطتهم، أو يستثقلون وطأتهم، ولا كانوا يرون أنفسهم أذلاء لخضوعهم لحاكم أجنبي عنهم بل كان السواد الاعظم وهم المسلمون يعدون التركي منهم لأنه مسلم وهم قلما يفكرون في مسألة الجنسية، وأما غير المسلمين فلم يكن عندهم فرق بين التركي المسلم والعربي المسلم فهم كالمسلمين كانوا لا يفكرون في غير الرابطة الدينية ثم صار المتعلمون منهم على الطريقة الاوربية يدعون الى الرابطة الوطنية على ان اكثر اهل بلادنا لا يفهمون من معنى الوطن الا موضع الاقامة حتى ان كل بلد عندهم وطن وهذا هو المتبادر من المعنى اللغوي. ثم ان النصارى سبقوا في كثير من البلاد العربية الى التقرب الى حكام الترك بتعلم التركية حتى صار كتاب الدواوين كلهم أو جلهم منهم في أوائل العهد بالتنظيمات ثم قل عددهم فيها بعد ذلك

نعم ان جهل أهالي البلاد للغة التركية وجهل الحكام من الترك للغة العربية كانا ولا يزالان من أسباب الجفاء وعدم الانس، واشتهر الترك على رقة حاشيتهم وعلو أدبهم بالكبر والغلظة على ان كثيرا منهم كان يتكبر لظنه ان التكبر يكون أدعى

الى المهابة والاجلال ولكن لم يكن يشعر بهذا إلا بعض أفراد الامة وهم رجال الحكومة من أهل البلاد فلم يكن له تأثير في الامة يوجب سريان الكراهة للجنس ، وإنما كان يعرف بين الناس وصف الحاكم من حيث هو حاكم فيقال هذا الوالى أو هذا المتصرف عادل لايأكل «الرشوة» وهذا الوالي أو المتصرف يأكل ويشرب ... وكثيرا ما كان الناس قبل هذه الايام يمدحون الترك كلهم لوجود حاكم عادل منهم وقلما كانوا يذمونهم كلهم لظلم الحاكم منهم على أن الظالمين كانوا بطبيعة الاستبداد أكثر من العادلين

وقد عرف بين الناس في الولايات العربية شيء آخر لا بد من ذكره وان كان مرا لاننا نبحث في هذه المسألة بحث الطبيب الآسي وفي المثل العربي «من أكتم داءه قتله» ذلك الشيء هو أن الترك يبغضون العرب . ويتناقل الناس في كثير من البلاد العربية كلاما سمعوه من بعض حكام الترك صريحا في هذا ولا أحب أن أطيل في بيانه ولولا أنه مشهور لما ذكرته ليعرف اخواننا الترك من ولاة الامور وأصحاب الصحف فيكونوا معنا على بصيرة فيما نطلبه من خير الامة بالاعتصام والوحدة

يمكن أن يقال ان ماسمع من تصريح بعض الترك ببغض العرب هو من الجزئيات التى لا تبلغ أن تكون استقراء ناقصا فالحكم بها على الجنس كله حكم باطل ولا سيما اذا عرف لها سبب يوجد في صنف من افراد الجنس دون غيرهم . وقد علمت بعد البحث والتحري ان هذا الصنف الذي قد بدت البغضاء للعرب من افواه كثير من أفراده هو صنف المتفرنجين والضعفاء في الدين من الذين يثقل عليهم مزاحمة العرب لهم في خدمة الحكومة وفي التوسل اليها بالتعلم في المدارس الرسمية فان بعض المتخرجين في هذه المدارس من ابناء العرب وبعض التلاميذ الذين لا يزالون فيها يذكرون من تعصب بعض المعلمين عليهم مالا محل لشرحه هنا . ومن المشهور عن كثير من الترك الصالحين وغير المتزاحمين معهم على اعمال الحكومة أنهم يحبون العرب حبا دينيا حتى ان منهم من يتبرك بالعربي لانه عربي فالحقيقة المحصة هي أنه ليس بين الجنسين عداوة ولا بغضاء فنقول ان الاتحاد بينهما متعذر أومتعسر وانما هو التغاير والتنافس في طلب المناصب والوظائف وفي

صفوف المدارس قد وصل مع الغلو الى التحاسد كما أشرنا الى ذلك في فاتحة النبذة الاولى ومثل هذا التنافس والتحاسد يقع بين المتزاحمين من ابناء الجنس الواحد فلا فيه سبيل ان شاء الله

والخلاصة ان تاريخ العلاقة بين الترك والعرب لم يكن فيه شيء ا كثر مما ذكرنا ولم يكن ذلك في الماضي مما يخطر على بال زعماء العرب السعي الى انفصالهم من الترك واستقلالهم بأنفسهم ولا ذكر هذا على لسان احد الا في عهد ولاية زعيم الحرية والاصلاح (مدحت باشا) على سورية ففي عهده شاع ان في البلاد حزبا كبيرا مؤلفا من وجهاء المسلمين والنصارى في بيروت والشام يسعى الى جعل القطر السوري مستقلا كالقطر المصري تحت سيادة الدولة العلية ويكون الخديو له مدحت باشا . وقيل ان بعض « الماسون » كانوا يسعون الى جعل الامير عبد القادر الجزائري هو الخديو لهذا القطر . وقد سمعت من والدي رحمه الله تعالى ان مدحت باشا على سعيه في اصلاح الدولة اعتقد ان اصلاح البلاد السورية وجعلها خيرا من البلاد المصرية لا يتأتى الا باستقلالها الاداري فكان يمهد السبيل لذلك فشعر بالامر رستم باشا متصرف لبنان فكاشف به الدولة فكان ذلك هو السبب في عزل مدحت من ولاية سورية . ولكن أخبرني بعض العارفين بدخائل السياسة في ذلك الوقت ان السلطان عبد الحميد هو الذي أوجد تلك الاشاعة في سورية ليتوسل بها الى اخراج مدحت من سورية لاجل الانتقام منه . ويقال ايضا ان لبعض الاجانب يدا في توجه نفوس الناس في سورية الى هذه الفكرة . وقد حدثني بعض اصحابي الذين كانوا من عمال الحكومة في عهد مدحت باشا انه سأله عما يقال في هذه المسألة فقال له زعيم الاحرار ان هذه دسائس من الاجانب يريدون بها فصل سورية من الدولة ليستولوا عليها

مثل هـذه الدسيسة لا يستغرب من سياسة « يلدز » التي كانت مبنية على المكايدة والمخادعة واخفاء الحقائق بألوان التمويه والتلبيس وهي التي لعبت بالثورة العرابية ذلك اللعب المشؤم ومكنت الانكليز في أرض مصر ، ثم أرادت أن ترضي سائر الدول القوية بتمهيد السبيل لتمكنهم في سائر أرجاء الدولة في مقابلة مصر

فأعطت الالمانيين سكة حديد بغداد وقررت اعطاء الروسيين مثلها على شواطئ البحر الاسود — وقد راجت تلك الدسيسة الحميدية على اهالي سورية فشاع بينهم ان مدحت باشا وهو المعروف بحب الاصلاح ما أراد انشاء دولة عربية الا بعد يأسه من قدرة قومه على سياسة الملك واقامة العدل وتشييد دعائم المدنية بما تقتضيه حال العصر ، فكان هذا اول فكر في التنفير من السلطة التركية سرى في بلاد عربية ، وقد نظمت فيه القصائد البليغة المؤثرة كالقصيدة السينية الشهيرة لليازجي ولكنه فكر لم يتلقه السواد الاعظم بالتسليم

ثم سكنت هذه الافكار بعد اخراج مدحت باشا من سورية عدة سنين حتى اذا ما اشتدت المظالم الحميدية في السنين الاخيرة وقويت فتنة اليمن وفتنة مكدونية عاد بعض الناس الى الحديث فيها بمصر وأوربا فكان المشتغلون بالسياسة من ابناء العرب على ثلاثة آراء: بعضهم يرى السعي في أوربا لاستقلال البلاد العربية كأصحاب جريدة النهضة العربية في باريس ولم يكن لهم تأثير لعدم انضمام احد من المسلمين اليهم ولاتهامهم بانهم يريدون الاستفادة من السلطان عبد الحميد بالايهام الذي كان يروج في سوق سياسته أو وسواسه

وبعضهم رأى انه يجب اتحاد المسلمين مع اليهود والنصارى على العمل ووضع له قانونا جعل فيه من الامتياز لليهود ما كان ضامنا به أن يبذلوا للمشروع الملايين من أموالهم ليعطى بعضها لعبد الحميد ورجاله ثمنا للبلاد التي يراد استقلالها وكان يعتقد أن إرضاء « يلدز » بالمال متيسر أو مضمون وقد أطلعني صاحب هذا المشروع أنا وبعض أصدقائي على قانونه فلم نوافقه على السعي له مع علمنا بما لليهود من اليد العاملة في كل انقلاب كبير في التاريخ ويؤيده ماحصل أخيرا من الانقلابات ...

والرأي الثالث هو ماعليه جمهور المشتغلين بالسياسة وهو انه يجب الاتحاد الدائم بين العرب والترك والمحافظة على كيان الدولة العلية بالسعي في اصلاحها وجعلها دولة دستورية ولاجله اسسنا جمعية الشورى العثمانية من جميع العناصر كما اشرنا الى ذلك من قبل . فهذا ملخص تاريخ هذه المسألة قبل الانقلاب الاخير فماذا جرى بعده؟؟

(المقال بقية)